

الشيخ محمد بن رحال: مواقف السياسية
 وجهوده الإصلاحية في مجال التربية والتعليم

Sheikh Mohammed bin Rahal:

His Political Stances and Reform Efforts in the Field of Education and
Teacheng.



عبد القهار بوحفص *

مخبر البحث في الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية والسلطة، جامعة مستغانم

bouhafsabdelqahhare@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/02/03 تاريخ القبول 2025/05/22 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تتناول هذه الورقة بالدراسة شخصية سياسية وثقافية، من خيرة ما انتجت الساحة الثقافية والعلمية في الجزائر، فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية الربع الأول من القرن العشرين. إنها شخصية الشيخ محمد بن رحال الندرومي التلمساني. وسوف نحاول في هذا الشأن معرفة أهم الرؤى التي جاء بها، وعن أهم الاقتراحات التي قدمها في سبيل إحياء الدائرة الثقافية والتربوية والدينية في جزائر ما بين 1886-1925. كما أن هذه الدراسة ستحاول معرفة أهم التغيرات التي أصابت المستوى الثقافي، وبشكل خاص مستوى التعليم في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث. وأخيراً ستحاول هذه الورقة إعطاء صور عن بعض ردود الفعل لدى المجتمع الجزائري، والمتمثلة في الرفض والمقاومة لمختلف سياسات الاحتلال الفرنسي، خصوصاً على المستوى التعليمي والتربوي والثقافي بشكل عام.

الكلمات المفتاحية: ثقافة، تعليم، إصلاحات، جهاز تربوي، محمد بن رحال، ندرومة.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This paper examines a political and cultural figure, of the most distinguished personalities to emerge from the cultural and scientific scene in Algeria during the late 19th century and the first quarter of the 20th century. It is the figure of Sheikh Mohammed bin Rahal AL - Nadroumi AL – Telemsani. In this regard, we will attempt to explore the key visions he introduced and the most significant proposals he put forward to revive the cultural, educationnel, and religious spheres in Algeria between 1886 and 1925. Additionally, this study, seeks to understand the major changer that affected the cultural landscape particularly the level of education during that period in modern Algerian history. Finally, this paper aims to provide insights into some of the Algerian society's reactions, particularly in the form of rejection and resistance against, various French colonial policies, especially in the educational, pedagogical, and cultural spheres.

key words: cultural, Educational, Reforms, Educational System, Mohammed bin Rahal, Nadrouma.

مقدمة:

لقد سكت تاريخ الجزائر الحديث عن أسماء مفكرين أفذاذ، نذروا أنفسهم لخدمة قضايا الأمة الجزائرية وثقافتها، فسلكوا في ذلك طريقاً ذهبوا فيه إلى دراسة مختلف قضايا التربية والتعليم والثقافة عموماً، مستثمرين جهدهم ووقتهم في تكوين أنفسهم ابتداءً، تكويناً يرتقي بهم إلى مصاف عِلْيَةِ القَوْمِ الذين ينهضون بمهمة الإنتاج العلمي والبناء الحضاري في ذلك العصر.

ولقد حرص هؤلاء الرجال، خاصة أولئك الذين اشتغلوا واهتموا بمسألة الثقافة عموماً وخصوصاً مسألة التربية والتعليم في الجزائر، على الانطلاق في مشاريعهم الإصلاحية من مبدأ الفكر، أي أن نظرهم لهذا الأخير، كانت مرتكزة أساساً على مبدأ التثقيف والتعليم والتنوير للناشئة في تلك الفترة من تاريخ الجزائر الحديث، محاولين في هذا الشأن تغيير الواقع الذي كان سائداً في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر المحتلة، حقبة (1886 - 1925).

ولقد كان في شخصية الشيخ محمد بن رحال الندرومي التلمساني، النموذج الأمثل لهؤلاء المفكرين، الذين تكاد صحف المؤرخين لا تلتفت إليهم إلا في شكل شذرات هنا وهناك، خاصة فيما تعلق بالميدان الثقافي الجزائري والنهوض بالمشروع التربوي الذي حرص عليه منذ سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر إلى غاية الربع الأول من القرن العشرين.

هذا التغيب، يتجلى في كون هؤلاء المهتمين بالتربية والتعليم والثقافة عموماً، لم يؤلفوا للناشئة إلى يومنا هذا في حدود معرفنا ولا قاموساً متعلقاً بأعلام التربية في الجزائر، على الرغم من أنهم موجودون بإسهاماتهم الكبيرة جداً في هذا المجال، والكثير منهم كتبوا وتركوا ميراثاً كبيراً، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ عمر بريهمات، الذي ترك بعد وفاته أكثر من سبعة مؤلفات (كتب)، في قضايا التربية والتعليم بالجزائر، وهو الذي يعتبر من أهم الأعضاء الذين كانوا في الجمعية البسكية التي كانت تنشط في الجزائر العاصمة في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث.

وتأسيساً على سبق، فإنه يمكن أن نطرح التساؤل الآتي: إلى أي مدى كان تأثير الشيخ محمد بن رحال في إصلاح الدائرة الثقافية والتعليمية في جزائر ما بين 1886 - 1925؟

وبخصوص فرضية الدراسة فإنها تمثلت فيما يلي:

- كانت لجهود الشيخ بن رحال السياسية والإصلاحية أثر كبير في تغيير الحالة الثقافية والتعليمية للجزائر في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث.
- شكلت اللحظة التاريخية والحالة الثقافية التي عاش في كنفها الشيخ بن رحال شخصيته الغامضة في التعامل مع مختلف السياسات الاستعمارية في المجال الثقافي والتربوي آنذا.
- ومن أجل بلوغ الهدف الذي تتوخاه الدراسة، فإننا سعينا إلى تقديم رؤية تحليلية وصفية ومن منظور تاريخي سوسيولوجي لجملة الأفكار التي ساقها خصوصاً الباحث

السوسيولوجي عبد القادر جغلل في كتابه "تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية". وتحليلها في سياقاتها التاريخية والثقافية التي أنتجت اللحظة الراهنة آنذاك، أو من تلك الرؤى التي قدمها باحثون آخرون عن الحالة الثقافية والتعليمية التي ميزت تلك الفترة من تاريخ الجزائر الحديث من جهة أخرى.

وبالنسبة للأهداف التي نتوخاها من الدراسة، فإننا نحاول السعي إلى إبراز هذه الشخصية السياسية والثقافية للناشئة، خصوصا أولئك الذين يهتمون بالنهوض بالمشروع التربوي والثقافي في الجزائر. إضافة إلى ذكر سيرة ومآثر وجهود هذه الشخصية الفذة في مجال التربية والتعليم في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث. يضاف إلى ذلك محاولة إبراز الدور الذي كان يقوم الشيخ محمد بن رحال الندرومي بصفته الناطق باسم الأمة الجزائرية وعن أهم السياسات التي انتهجها في مناقشاته مع الاحتلال الفرنسي آنذاك.

المبحث الأول: عصر الشيخ محمد بن رحال

للحديث عن أي شخصية ما، سواء كانت ثقافية أو سياسية أو فكرية، لا بد أن يسبق ذلك الحديث عن عصر هذه الشخصية، قبل الخوض في سيرتها من جميع الزوايا، ذلك أنه من المعلوم به منطقيا أن المجتمع وثقافته سابق للمرء، وهو الذي سوف نركز عليه في هذا المبحث.

المطلب الأول: الحالة الثقافية والتعليمية للشيخ بن رحال

سنحاول الحديث في هذا المطلب عن البيئة الثقافية والتربوية التي عاش في وسطها الشيخ محمد بن رحال في بداياته تنشئة الفكرية والثقافية والتي بلورت شخصية فيما بعد. لقد بدأ الصراع الثقافي والحضاري بين الجزائر وفرنسا غداة الاحتلال، حسب ما تذكره المؤرخة الفرنسية إيفون تورين Yvonne Turin، حيث بدأ المحتل الفرنسي يفرض لسانه وتفكيره وأسلوبه في الحياة، مستعملا في ذلك المدرسة والمستشفى والمعلم والطبيب ليحطم آخر قلعة التجأ إليها المسلمون وهي الدين.

وبعد حوالي 20 سنة (1830 - 1850) أخذ المحتل الفرنسي يحدث المدارس فلا تجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد إليها المرضى، ويريد أن يدرس الحالة الاجتماعية فلا يجد من يطلعه، وأصبح الدين الإسلامي الحق كالإسمت المسلح يحمي من التفكك والاندماج. وهو الأمر الذي يظهر من خلال التفسيرات التي تقدمها الباحثة إيفون تورين، والتي تؤكد على الدور الذي كانت تلعبه الزوايا آنذاك في البلاد، هذه الأخيرة كانت تعتبر مراكز دينية وثقافية، ومدارس للكبار والصغار، ودور للمعالجة والتداوي واسعاف الفقراء، وملتقى ذوي الرأي ونقاط ينطلق منها الجهاد¹.

وبعد إنشاء المدارس الخاصة بالأهالي، أنشأت فرنسا المدارس الفرنكو - إسلامية الثلاث (تلمسان، الجزائر العاصمة وقسنطينة)، وذلك حتى تُكوّن أجيالا جديدة من النخب المتحليين بالثقافة الغربية، وتكونت ثقافة الأعيان. هذه الأخيرة، ظهر فيها جيل لم يتخل عن تقاليد ثقافته الإسلامية رغم تمكنه من اللغة الفرنسية، وبقي في نفسه أمل للتخلص من القمع الاستعماري، وهو جيل الأمير خالد، والشيخ محمد بن رحال الندرومي، ورفاقهما ممن كانوا يواجهون عنف الإدارة الفرنسية بالخطب العاطفية التي تحاول إقناع الخصم بالرجوع إلى العدالة الإنسانية.

هذا ما يتطرق إليه الأستاذ عبد المجيد مزيان، وفي ذات السياق، يضيف أن هؤلاء المثقفين الأعيان كانوا بعيدين كل البعد عن الجماهير المشردة، وكأنهم يلعبون دور الترجمان عن عواطف أمة صاروا منفصلين عنها، بسبب مخالطتهم للاستعمار وقبولهم لخطط تكوين النخب الأهلية كواسطة بين الشعب وسلطات الاحتلال².

ويعتبر الشيخ بن رحال من الشخصيات النادرة السياسية والثقافية، خلال المرحلة التي سبقت تكوين الحركة الوطنية الجزائرية، فهو يمثل محاولة الرفض في الحوار بين المجتمع الجزائري والاستعمار الفرنسي، هذا الحوار الذي ترسخ بعمق في الإطارات الاجتماعية والثقافية في تلك الفترة³.

لقد كان له الدور الكبير في محاربة المدارس الرسمية للاستعمار وسياسته الثقافية، حيث كان يحرص الشعب على رفض سياسة الاندماج، ويُبين للمواطنين أهدافها وخطورتها، وجعل كل مدرسة جزائرية وكل مسجد وزاوية مركزاً وحصناً لمحاربة العدو"⁴.

إذ تعتبر المدرسة الاستعمارية الفرنسية، تيار فكري وليد الفترة الاستعمارية، هدفه الأساسي هو تبرير السياسات الاستعمارية وتجميل صورتها، وبالمقابل تقديم صورة مزيفة عن الشعوب المستعمرة. وقد استخدمت هذه المدارس الثقافة والتعليم والإعلام للترويج لأفكارها عن التاريخ والحضارة لفرض هيمنتها الثقافية والاستعمارية. ومن ميزات هذه المدرسة أنها عرقية، حيث تعتبر الشعوب المستعمرة أقل شأنًا من الشعوب الأوروبية وأنها تحمل إلى هذه الشعوب رسالة الحضارة.

كما استغل علاقته الشخصية، مع مختلف الشخصيات الفرنسية، الذين كانت تربطه بهم علاقة صداقة مثل العالم الشهير الدكتور غوستاف لوبون **Gustave Le Bon**، صاحب التأليف الشهيرة عن الحضارة الإسلامية عبر التاريخ. كل ذلك كان بسبب ثقافته المتينة الإسلامية والفرنسية"⁵.

لم تكن نظرة الشيخ محمد بن رحال للإصلاح، مشابهة لنظرة المفكرين الجزائريين الذين سبقوه في هذا الميدان، بل كانت أشمل وأوسع وأدق منهم بكثير، وهو الذي " انطلق في ذلك من جملة الأفكار والتوجيهات التي كان يقدمها له الشيخ محمد بن الأعرج التلمساني أحد واضعي النظام التربوي في المغرب منذ 1922، حسب ما يذكر الباحث السوسيولوجي سعيد عيادي". إذ أن من بين ما اقترحه بن رحال في برنامجه، تنظيم التعليم في المدارس الرسمية الثلاثة، الموجودة في تلمسان والجزائر وقسنطينة. كما اقترح أيضا، تحديد مدة الدراسة بثلاث سنوات، مع فتح الآفاق أمام علماء الجزائر باعتبارهم يملكون الخبرة الواسعة، وهم من خيرة خريجي المعاهد العليا كالزيتونة بتونس، والقرويين بفاس،

وجامع الأزهر بالقاهرة. وهنا نراه يدعو إلى توظيف الجزائريين، واجبارية تعليم اللغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية"⁶.

ولقد لاحظ الشيخ بن رحال تدهور التعليم العام في الجزائر في عصره، لاسيما ما كان منه باللغة العربية، التي كادت أن تنمحي وتزول من الوجود، فعمل على تدبير تقرير شامل دافع فيه عن اللغة، لغة القرآن الكريم. وفي سنة 1897 ألقى محاضرة باللغة الفرنسية، بمناسبة انعقاد المؤتمر الحادي عشر الذي عقده المستشرقون في باريس، كان عنوانها " مستقبل الإسلام " وكانت هذه المحاضرة مهمة ومفيدة جداً مبنى ومعنى تحتوي على أهم مشاكل وقضايا الشعب الجزائري في أمانيه وآماله، حاضراً ومستقبلاً"⁷.

المبحث الثاني: الشيخ محمد بن رحال: سيرته وآثاره في مجال التربية والتعليم

سوف نعالج في هذا المطلب مسألتين مهمتين تتعلق الأولى بسيرة الشيخ محمد بن رحال الندرومي، مرتكزين في ذلك على ذكر تاريخ مولده ونشأته بعد ذلك، كما أنه سوف نتطرق إلى ذكر بعض مآثره وهي التي اختصرنا فيها على ما أنتجه الشيخ بن رحال في مجال التربية والتعليم.

المطلب الأول: مولد الشيخ بن رحال ونشأته

ولد الشيخ محمد بن رحال عام 1861م بمدينة ندرومة، في أسرة عريقة نبيلة في ولاية تلمسان. ويعود نسب الشيخ محمد بن رحال، إلى الحاج حمزة بن البشير بن أحمد بن علي بن رحال، أحد أعلام تلمسان وأعيانها المشاهير. وقد عُرفت أسرته بكونها ذات قدم راسخة في التقدم، في ميادين العمل والثقافة والديانة والرئاسة والسؤدد. فقد ولى الأمير عبد القادر الجزائري، والده حمزة بن رحال، في عهده العدالة في تلمسان، ثم منصب القضاء في ندرومة.

ولقد نشأ محمد بن رحال في حجر والده، الذي كان أول من أدبه فأحسن تأديبه، ثم أدخله الكتّاب وهو لم يتجاوز السنة الخامسة من عمره، حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم أدخله المدرسة الفرنسية ليأخذ معلوماته الأولية فيها⁸.

وقد افتتحت أول مدرسة فرنسية في ندرومة عام 1867 بموجب قرار صدر يوم 28 يناير 1865، التحق بها ثلاثون طفلاً مسلماً، ينتمون إلى عائلات أرسقراطية، حيث كانوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب باللغة الفرنسية، وكان من بين تلاميذ هذه المدرسة محمد بن رحال⁹.

كان محمد بن رحال صاحب زاوية، كَوَّن والده حمزة كان من أتباع الطرق الصوفية. يقول البعض إنها الزاوية الدرقاوية وهذا عند عبد القادر جغلول، ويقول آخر إنها الزاوية القادرية¹⁰. بعد ذلك انتقل من ندرومة إلى العاصمة والتحق بالمكتب الإمبراطوري المختص بالأهالي في ذلك الوقت، فتزود به من الأفكار والمعلومات الفرنسية في أقصر مدة، لما كان يمتاز به من مواهب عبقرية ونبوغ فطري.

وفي سنة 1878 هاجر إلى أوروبا، للتفرغ على المعرض الكبير الذي أقامته فرنسا في باريس، وقد كان لهذا السفر الميمون أثره الفعال في تطور أفكاره وذكائه ومشاعره نحو القومية الإسلامية والغيرة الوطنية. استقال من الحكومة الفرنسية من وظيفة القيادة الزائفة، فور عودته من السفر الذي ترك فيه أثراً كبيراً، مما مكنه من إعادة طريقة تفكيره وسيره في الحياة، وهو الذي حمل على عاتقه خدمة القومية الإسلامية والتفاني في بعث النهضة الوطنية.

سافر مع صديقه الدكتور محمد بن العربي الشرشالي إلى باريس سنة 1891، ليناقدش البرلمان الفرنسي في المسائل الثمانية عشر. وقد اختص بإلقاء مذكره أمام رئيس الوزراء "جول فيري"، ألحّ فيها على إعادة تنظيم المدارس الجزائرية - الفرنسية، وإصلاح التعليم العربي.

وبعد مسيرة شاقة، قضائها مجاهداً، في سبيل الإصلاح الاجتماعي، خصوصاً إصلاح قطاع التربية والتعليم توفي الشيخ محمد بن رحال رحمه الله في 24 ربيع الثاني 1347هـ، الموافق 06 أكتوبر 1928م¹¹.

المطلب الثاني: آثار الشيخ بن رحال في مجال التربية والتعليم

ترك الشيخ محمد بن رحال عدة مؤلفات كان قد كتبها في حياته، وهي في الغالب تشكل عصارة ما أنتج من خلال نضاله السياسي والثقافي، الذي أخذه على عاتقه منذ سن متقدمة من حياته. وهي تشكل كذلك، جملة المحاضرات التي ألقاها في مختلف المواقف الثقافية والسياسية والتربوية، سواء في الداخل أو الخارج. وسوف نختصر في هذه النقطة على ذكر مؤلفاته في مجال التعليم، الذي خصص له القدر الكافي، للحديث عنه في هذه الدراسة، وهي كالتالي:

- ملاحظات حول تعليم الأهالي (السكان الأصليين 1886). غير منشور، أعيدت أفكاره في مقال "دراسة حول تطبيق التعليم الحكومي في البلدان العربية" الذي نشر عام 1887.

- مشروع إعادة تنظيم التعليم العالي في الجزائر عام 1892. (نص غير منشور)
- مداخلة للتفويضات المالية بشأن تعليم اللغة العربية، نشر في: "صدى الجزائر" رقم 3371 - حزيران 1921¹².

- تقرير حول التعليم العام الإسلامي (المدارس) أعد من قبل السيد كومبس، سيناتور باريس 1894¹³.

المبحث الثاني: الشيخ محمد بن رحال: موقفه الإصلاحية ونظرته إلى حل الأزمة

الثقافية

سوف يكون الحديث في هذه النقطة عن أهم الرؤى والتصورات التي ساقها واقترحها محمد بن رحال في إعادة إصلاح الدائرة الثقافية والتربوية التعليمية على وجه الخصوص،

وهو الذي عمل عليه منذ نضوجه العقلي وانفتاحه الفكري على السير في طريق الإصلاح للبنى الاجتماعية للمجتمع الجزائري، سواء على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي. يضاف إلى ذلك نظرته إلى حل الأزمة الثقافية في جزائر ما بين 1886 - 1925.

المطلب الأول: مواقف الشيخ بن رحال لإصلاح التربية والتعليم

يذكر المؤرخ الجزائري، أبو القاسم سعد الله، أنه ومنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، انطلق قلم وفكر بن رحال في خدمة القضية الجزائرية والفكر العربي - الإسلامي بشكل أوسع وأعمق. فقد نشر عن التعليم العمومي في البلاد العربية، وعن السودان في القرن السادس عشر، مثلاً (كتاب نزهة الحادي للأفراني، نشره في الجمعية الجغرافية في وهران)¹⁴ وكان يكتب بالفرنسية.

ومنذ التسعينيات من نفس القرن دخل المسرح السياسي والعلمي بقوة، وكانت المناسبة هي مجيء التحقيق برئاسة جول فيري إلى الجزائر سنة 1892. لقد كان من بين الشخصيات التي دافعت عن حقوق الجزائريين في التعليم باللغة العربية وفي التمثيل البرلماني، والمحافظة على تطبيق الشريعة الإسلامية. كان في جهوده رغم قيمتها وقوتها، جهوداً فردية، فهو يكتب ويسافر، ويتكلم بصوته وحده تقريباً¹⁵.

لقد بادر بن رحال إلى تذكير فرنسا بإصلاح شؤون المدرسة الجزائرية، وتنظيم التعليم، وهذا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فهو إذ يميل إلى رؤيته للتعليم على أنه مشروع موازي لذلك المشروع الاستعماري. ولهذا كان دائماً يحرص على حق الأطفال الجزائريين في التعليم، وكان يعارض كل ما يتعرض له التعليم العربي من اقضاءات ومضايقات لمؤسساته التعليمية والتربوية ومحاربة لمشايخها، قصد القضاء على مقومات المجتمع الجزائري من لغة ودين وثقافة وغيرها¹⁶.

ومن جهته، وقبل البدء في أي تحليل للبنية الثقافية والنظام التعليمي، يذكر الباحث عبد القادر جغلول مسألتين مترابطتين، من خلال ردود الفعل الجزائرية، للانحلال الجزئي لنظام التعليم القديم، ولترسيخ الجهاز المدرسي الفرنسي. فأول هذه المسائل جمع الوثائق: والقصد منها عدم الاعتماد على المصادر الفرنسية في دراسة ردود الفعل الجزائرية، رغم ما فيها من الفائدة المقدمة، كدراسة البواعث الأيديولوجية للمستشرقين، الذين يريدون ترسيخ النظام المدرسي الاستعماري. بينما تمثلت المسألة الثانية في المنهج، وهي مسألة مهمة في دراسة البعد المميز للنظام المدرسي الفرنسي من طرف الجزائريين، والذي لا يتم إلا من خلال أخذنا بعين الاعتبار المصادر الجزائرية لعناصر ثقافية معينة.

من هذا البعد، تبدو لنا دراسة المعركة التي خاضها محمد بن رَحَّال في ميدان تعليم الجزائريين ذات أهمية مزدوجة: على المستوى الثقافي، تمثل شهادة بن رَحَّال مستنداً ذا أهمية خاصة، يمكن إضافته إلى ملف تعليم الجزائريين خلال العهد الاستعماري، خاصة ما بين 1886 و 1925. بينما على مستوى الصورة الأكثر عمومية، فإن معرفة وجهة نظره في مسألة تعليم الجزائريين مقبولة، لأنها تمكن من إعادة النظر في الرسوم البيانية ذات الفرعين، والتي تكون بصورة واعية أساساً لأغلبية التحليلات الخاصة بالفعل الاستعماري (رفض استيعاب عربي/ فرنسي. تقليدي/ تحديث) التي تخفي تعقيد الجوانب المختلفة التي تتخذها المطالبة في أوقات معينة ضد الاستعمار¹⁷.

إن ما يدعو إليه محمد بن رَحَّال، حسب عبد القادر جغلول، في رؤيته الإصلاحية للدائرة الثقافية الجزائرية وللنظام التعليمي على وجه الخصوص، هو تبني كل ميادين العلوم البحتة للحضارة الغربية، وأجزاء هامة من النظام الداخلي والسياسي، ونظام الأشغال العامة، والتعليم، وكل ما يتعلق بالتجارة والصناعة من دون تعديلات كبيرة. لأنه لم يكن يرى فيه شيئاً يخالف العقيدة، بل بالعكس من ذلك، فإنها تفرضه وتحث عليه. ولهذا فإن نظرتَه في هذه المسألة ضرورية لتلقيح بعض عناصر الحضارة الغربية للحضارة العربية -

الإسلامية، لكي تخرج هذه الأخيرة من سباتها. وهو ممن يدعو إلى تعليم البنات، بحيث كان يرسل بناته إلى المدرسة التابعة للجمعية الخيرية الإسلامية التي كانت في عصره.

بعد سنة 1884، بدأ الشيخ بن رحال نضاله، خاصة في المجال المدرسي، جاعلا نفسه الناطق الرسمي للمطالب الجزائرية في مجلس الأعيان المؤلف من 18 شخصا، عندما استدعي لشرح الوضع برفقة صديقه الدكتور محمد بن العربي الشرشالي سنة 1891.

إن الدليل الشخصي الذي جعل بن رحال يتكلم لغتين لثقافة مزدوجة، هو الذي جعله يتأثر بمشكلة التعليم والثقافة، خاصة أنه كان شاهداً للهجوم الأخير الذي شنه الاستعمار اتجاه البنى الفوقية للمجتمع الجزائري، والذي عم كذلك ميدان التعليم آنئذ. ولقد كان لمرسوم 1883 الذي أصدر من أجل توطيد جهاز مدرسي جديد، والذي أمد الجزائر فعلا بمبادئ هذا الأخير، الأثر الكبير في التدخل في الدائرة التعليمية، وبالتالي تشكل إعادة بناء نسقي للجهاز التربوي، وهو الذي فرضَ في فرنسا ويرتبط باسم جول فيري من حيث العلمانية والمجانية، والصفة الإلزامية¹⁸.

يذكر الشيخ بن رحال أن النظام التربوي الذي كان قبل 1883 كان نظاماً متدهوراً، وهو الذي عمل الاستعمار على محاربته من خلال هدم الجهاز التربوي والديني بصورة مباشرة، وذلك بتضييق أسسه المادية والاجتماعية. وقد تمثل الجهاز الجزئي في تلك الجمعيات الخيرية التي كانت تقاوم السياسة الاستعمارية في تلك الفترة، وهو الذي جعل الهجوم الجبهوي للاستعمار ممكناً من الهجوم على ميدان التعليم وذلك لغياب مشروع مدرسي متلاحم.

إن احتلال المستعمر الفرنسي للمدرسة الجزائرية، يعني بصورة مباشرة التسلط على لغتنا ومختلف لهجاتنا المحلية، وإدخال الفكرة التي نحملها نحن بأنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم إلى أذهان المسلمين، بإبدال الجهل والأحكام المسبقة المغالية بمفاهيم أولية للعلم الأوروبي الدقيق، ومنه غزو الأدمغة. إن ترسخ المدرسة الاستعمارية في الحقيقة هو سلاح

حرب ضد كل ما تبقى من النظام التربوي والديني القديم، كما أنه يُستخدم كتبرير لإغلاق الزوايا التي لم تستبدل بالمدارس في معظم الأحيان. وإن توطين الجهاز المدرسي الفرنسي لا ينتج فقط فئة هزيلة من الفرنسيين، بل أنه ينتج أيضاً وخاصة عدداً كبيراً من الأميين المزدوجي اللغات"¹⁹.

لقد خاض محمد بن رحال مقاومة الحوار في ميدان التعليم من خلال تاريخين مهمين يحددان الحقيقة التي من أجلها كان هذا الخوض، وهما: 1886 التاريخ الذي كتب فيه "ملاحظات حول تعليم الأهالي والذي نشر لا حقا في الجمعية الجغرافية. **L'Associolion géographique** وهي "جمعية متخصصة في المسح الأنثروبولوجي في المناطق الجزائرية المستعمرة، برزت هذه الجمعية بدراساتها الكثيرة عن الجوانب الأنثروبولوجية والإثنولوجية السوسولوجية. وهي بالإضافة إلى الدراسات التي كانت تشرف عليها وتصدرها، كانت لها بالموازاة مجلة فصلية يتداولها أعضاؤها والمتعاملون معها من مختلف الهيئات والمؤسسات الاستعمارية"²⁰.

بينما شكل تاريخ 1925 ذروة الانطلاق السياسي لبن رحال، فهو قد انتخب نائب رئيس المجلس العام في وهران. وإن ما يميز حقبة ما بين 1886 - 1925 هو الأزمة الحقيقية للحالة الثقافية الجزائرية. إضافة إلى انهيار النظام التربوي والديني ما قبل الاستعمار وترسيخ الإعاقة الذاتية للجهاز المدرسي الاستعماري.

لقد شكلت النصوص الثلاثة لمحمد بن رحال دلائل للإجابة على هذه التساؤلات التي طرحها لتجاوز الأزمة الثقافية في تلك الحقبة وهي:

- 1- دراسة حول تطبيق التعليم الحكومي في البلاد العربية عام 1887.
- 2- مشروع إعادة تنظيم التعليم العالي في الجزائر عام 1892.
- 3- مداخلة للتفويضات المالية بشأن تعليم اللغة العربية عام 1921.

من هذه النصوص انطلق بن رحال في دراسة مسألة تعليم الجزائريين، هذه الأخيرة ترد بشكل عملي في كل كتاباته ومدخلاته، وليست حكراً على هذه النصوص الثلاثة فقط، كون هذه النصوص تحت جانباً من المسألة المدرسية بصورة محكمة ومنسقة نسبياً، ولأنها تمثل كذلك لحظات حاسمة في المجال الثقافي الجزائري، حسب عبد القادر جغلول.

بالنسبة لبن رحال فإن مرسوم 1883 يمثل لأول وهلة الأمل في تعميم التعليم، وبالتالي حلاً للأزمة الثقافية التي عرفت الجزائر بسبب انهيار النظام التربوي والديني ما قبل سنة 1883. بهذه الصفة يكون بن رحال مؤيداً ومتحمساً للنظام المدرسي الجديد الاستعماري.

إن الصعوبات التي تواجه الجهاز المدرسي الاستعماري والتي يعددها بن رحال في أمرين اثنين هما: أولاً الجزائريون لا يطالبون بالتعليم من حيث التصور الذي قد يسلب الجنسية والدين، ومن حيث الارتباط بالعادات وعبادة الأجداد (اتباع كل موروث). بينما يمثل الأمر الثاني، في أن الجهاز المدرسي الفرنسي يكلف كثيراً وينتج أناساً مبعدين، سواء من حيث التكاليف الباهظة والمعدات والأجهزة والمستخدمين، أو من حيث إنتاج متعلمين أميين ومن دون هدف واضح في الحياة، ومن دون موقف يمكنهم من تطبيق ما تعلموه كذلك، وهذا يعني خلق أناس مبعدين.

كان بن رحال مثبتيًا لوجهات النظر التي طرحها، فهو مؤيد للتعليم المعمم (الاستعمار للتحضير والتعليم) ومتفق مع الانتقادات التي يوجهها المستعمرون (الغلاء، والإبعاد)، ومتفهم للحذر من جانب الجزائريين (تحديد أدنى لنفقات ومخاطر الحذر السياسي) ²¹.

المطلب الثاني: نظرة الشيخ بن رحال إلى حل الأزمة الثقافية

كانت نظرة الشيخ بن رحال كما بينا سابقاً في ثنايا هذه الدراسة، مختلفة عن التي كانت لثلة من المفكرين والباحثين الذين عاصروه أو ممن كانوا قبله، في تحليل واقع الدائرة الثقافية الجزائرية، خصوصاً ما تعلق بوضعية التعليم والتربية في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر

الحديث. وعليه، فإننا سوف نركز في هذه النقطة من البحث على أهم الاقتراحات والحلول التي صاغها بن رحال في النهوض بمستوى الثقافة والتعليم في فترة ما بين 1886 - 1925. وإن من بين تلك الاقتراحات ما يلي:

أ - تكوين مدارس من الأكواخ في القبائل

إنها تتماشى مع المتطلبات الاستعمارية: من الناحية الاقتصادية، فإنها تنطلق من مبدأ المجانية المطلقة، وإحداث مدرسة وطنية تستعمل تحت الخيمة بعض الصبورات واللوح الأسود وبعض الحصير. أما من ناحية البساطة: إحداث في كل قبيلة مدرسة أو عدة مدارس موجهة من طرف معلمين بسيطين يعلمون الناس القراءة والكتابة والحساب. وفيما يخص المسألة الثالثة والمتمثلة في عدم الإبعاد، فقد حثّ أن تكون المدارس وسط القبائل في متناول التلاميذ والأهالي.

ب - مراقبة المدارس من طرف السكان الأصليين.

ويقصد بها مسألة الاطار التربوي، وتسيير المؤسسات أيضاً، ويقترح بن رحال في هذه المسألة نقطتين مهمتين هما: إطار تربوي جزائري فقط، مجموع الموظفين مؤلفاً من عرب فقط ويستثنى من ذلك مديري المدارس الفرنسية الذين هم فرنسيون. بينما تمثلت النقطة الثانية في التسيير المشترك، وذلك باقتراح تشكيل لجنة مدرسية حول كل مدرسة عربية - فرنسية، يقبل فيها العرب الأكثر ثقافة في المنطقة، ومن مهامها: تشجيع الأولياء على إرسال أولادهم إلى المدرسة. إضافة إلى اقتراح وسائل أكثر صلاحاً للوصول إلى هذه النتيجة، وكذا التصليحات والتحسينات التي يجب إدخالها في التعليم. بالإضافة إلى عمل قائمة في كل سنة بالتلاميذ الأكثر جدارة قصد استخدامهم واختيارهم في تنصيب الوظائف التي عددها.

ج - الترقية الثقافية والاجتماعية والسياسية للعناصر المتعلمة.

يطرح بن رَحَّال فِي هذِهِ النِّقْطَة مَسْأَلَة مَسَالِك النِّظَام المَدْرَسِي، أَي مَا هُوَ المَحْتَوَى، وَمَا هِيَ الحُدُود الَّتِي يَجِب أَنْ يُعَيَّنَهَا لِتَعْلِيم الجَزَائِرِيِّين حَتَّى لَا يَعودُوا هُنَاكَ أَبْعَاداً؟ وَيُعْطِي لِهَذِهِ المَسْأَلَة ثَلَاثَة حُلُول مُطْلَبِيَّة:

مِنْهَا حَق مُتَابَعَة الدِّرَاسَة: وَالْقَصْد مِنْهَا إِرْسَال النِّخْبَة كَبَعْثَة مُمْنُوحَة إِلَى الكُلِيَّات وَالثَّانَوِيَّات وَالمَدْرَاس الخَاص...إِلخ. إِضَافَة إِلَى حَق مُتَابَعَة الوُظَاف الإِدَارِيَّة: مِثْل مَنَصَب حَاكِم إِدَارِي، وَالنَّوَظِير، وَالكُتْبَة، الخُوجَة، وَالشَّرْطَة، وَشَاوِيش، أَوْ نَاسَخِين فِي مَكْتَب الخِدْمَات الإِدَارِيَّة، وَهَذِهِ وُظَاف تُعْتَبَر مُتَوَاضِعَة وَلَكِنهَا مَرْغُوبَة مِنَ الأَهَالِي بِشَدَّة. وَأخِيراً حَق الإِقْتِرَاع، وَالْمَقْصُود بِهِ الحَق فِي الِاتِّخَاب بِالنِّسْبَة لِلَّذِينَ أَكْمَلُوا بَعْض الدِّرَاسَات أَوْ الَّذِي نَجَحُوا فِي بَعْض امْتِحَانَاتِهِمْ.

إِنْ النَّمُودَج الَّذِي اقْتَرَحَهُ، هُوَ نَمُودَج صِيَانَة المَجَال الثَّقَافِي الجَزَائِرِي، إِذَا عَتَبَرْنَاهُ مِنْ مُؤَيِّدِي الانْتِمَاج الثَّقَافِي الفَرَنْسِي مِنْ خِلَالِ التَّعْلِيم. فَإِنَّهُ لَا يَتَقَبَّلُهُ إِلَّا بِشَرَط أَنْ يَعمَلَ هَذَا الانْتِمَاج كَعَامِل ضَرُورِي لِلثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة، وَلَيْسَ كَعَمَلِيَّة إِحْلَالِ ثَقَافَة مَا مَكَان أُخْرَى. وَإِذَا كَانَ الشَّيْخ بن رَحَّال مِنْ مُؤَيِّدِي إِعَادَة بِنَاء المَجَال الثَّقَافِي وَالجِهَاز التَّربَوِي خَاصَّةً، فَهُوَ يُؤَيِّدُهُ بِشَرَط أَنْ يَدْعُم هَذَا التَّبَادُل وَحَدَة المَجَال الثَّقَافِي الجَزَائِرِي، وَلَا سِيَّمَا أَنْ يَكُونَ إِعَادَة البِنَاء مِنْ طَرَفِ الجَزَائِرِيِّين أَنْفُسَهُمْ فِي صَالِحِ نَحْضَتِهِم الثَّقَافِيَّة.

إِنْ هَذِهِ الصِّغَة المَبْهَمَة لَوْجَهَة نَظَر مُحَمَّد بن رَحَّال إِنَّمَا تَعَكِّس حَالَة الدَّائِرَة الثَّقَافِيَّة الجَزَائِرِيَّة فِي تِلْكَ الحَقْبَة، الَّتِي كَانَتْ تَخْلُو مِنْ عَنَاصِرِ التَّجْدِيدِ الَّتِي يُمْكِن أَنْ تَرْتَكِزَ عَلَيْهَا نَظَرْتُهُ. هَذِهِ الحَقْبَة الَّتِي شَهِدَتْ انْخِبَارَ النِّظَامِ التَّربَوِي وَالدِّينِي بِالْجَزَائِرِ. كَمَا أَنَّ مَسْأَلَة التَّعْلِيم فِي تِلْكَ الحَقْبَة كَانَتْ لَا تَزَالُ مَدْرَجَة فِي جَدُولِ الأَعْمَالِ وَلَمْ تَكُنْ بَعْدَ خَاضِعَة لِتَجْرِبَةِ التَّطْبِيقِ²².

لقد شكلت إعادة بناء الدائرة الثقافية وبشكل خاص الجهاز التربوي، إنتاج تأثيرات تدخل جزئياً في تناقض مع المصالح الاستعمارية، وهي التي ارتكز عليها بن رحال في إعادة إحياء وتنظيم المدارس الإسلامية من جديد. هذه المدارس التي يُلخص حالها بن رحال في النص التالي بقوله: "إن التعليم الإسلامي لا يوجد في الجزائر ما عدا حالته الابتدائية في المساجد والزوايا، وفي حالته التمهيدية في المدارس في تلمسان والجزائر العاصمة وقسنطينة"²³.

إن إعادة تنظيم التعليم الإسلامي، يشكل خطراً سياسياً بالنسبة للاستعمار، لأنه يشجع ذهاب الجزائريين لجامعات العالم العربي، حيث أنهم يعودون أقوياء بسيادة أخلاقية وفكرية، لا يملكها الطلاب المخرجين من المدارس الإسلامية السالفة الذكر.

لقد اقترح الشيخ بن رحال على لجنة الأعيان في تلك الحقبة مشروعاً من ثماني نقاط يعالج فيه المشكلة المزدوجة الحاصلة بين ما يسمى رجال الدين (الطلبة) المكونين في المغرب إما مشرعين أو متحضرين مثل كل العلماء. وبين الطلاب المستقرين في القبائل المنعوتين بالجهل والمتعرضين للسخرية حتى من الموظفين أنفسهم من القضاة وكتبة العدل والأئمة والحكام.... إلخ. وهذه النقاط هي:

أولاً إعادة تنظيم كامل للمدارس الإسلامية الثلاث في القطر الجزائري. إضافة إلى تحديد مدة الدراسة بثلاث سنوات، مع جعل عدد التلاميذ ضعفين أو ثلاثة أضعاف. يضاف إلى ذلك، زيادة عدد المدرسين واختيارهم من بين العلماء الأكثر بروزاً والمتمتعين بسيادة كبيرة. كما يتم تعيين معلمين فرنسيين ذوي خبرة يتكلمون ويكتبون العربية لتعليم الفرنسية والعلوم الابتدائية. وأقترح أيضاً إجراء امتحان في نهاية السنة الثالثة للانتقال إلى المدرسة الإسلامية في الجزائر العاصمة، حيث يكمل الطلبة دراستهم ويتبعون خلال سنتين بعض المحاضرات في المدارس العليا للآداب والعلوم. بالإضافة إلى أنه وعند انتهاء السنة الخامسة يجري امتحان حول البرنامج المعطى.

يقول بن رحال: وإننا نطالب أن يكون الامتحان لمصلحة نجاح الإصلاح نفسه، في قسم كبير منه للعلوم الإسلامية. وبالنسبة للبرنامج الفرنسي فإننا نضع المواد التي نعتبرها ملائمة". وفيما يخص النقطة الأخيرة التي اقترحها فإنها تمثلت في تنويع الامتحان بشهادة معادلة للبكالوريا، تفتح كل المجالات أمام الشباب الذين يقدمون ضمانات علمية لا ريب فيها"²⁴.

لقد أظهر تطبيق مرسوم 1895 تحقيق مشروع بن رحال، وهو الذي كان يحتوي على التدريس في المدارس الإسلامية، من أربع سنوات للتقسيم السفلي، إلى ست سنوات للتقسيم العالي. وقد تقرر في عام 1896 أنه ابتداءً من سنة 1898 لا يُعين أحد في وظائف المحاكم الإسلامية، إذا لم يكن قطع مرحلة في المدارس الإسلامية، ما عدا بعض الأساتذة الكبار المجتهدين أمثال: بن شعيب، بن شناب، ومارسيه دووت. وقد حقق هذا الأمر (الإصلاح) الآمال، بحيث أنه بلغ عام 1904 عدد الطلبة 215 طالباً، واستطاع بعض الطلاب من المدارس الإسلامية أن يسجلوا في إجازة (ليسانس) التعليم العالي الفرنسي دون الحصول على شهادة البكالوريا.

لقد تميزت وجهة نظر بن رحال في نص 1892 ثلاث أفكار يراها حلاً لمشاكل الاستعمار نفسه من جهة، وحلاً أيضاً لبداية نهضة الدائرة الثقافية الجزائرية، التي هي بذاتها متناقضة مع المصالح الاستعمارية، وهذه الأفكار تجلت في أولوية إعادة الاندماج الثقافي العربي - الإسلامي، مع قبول الاندماج في الثقافة الفرنسية. وأخيراً إمكانية نهضة الإسلام في إطار السيادة الفرنسية. يقول بن رحال في ذلك: ويجب أن نعترف أن المسلم ليس له من اعتبار إلا قليلاً بالنسبة للشباب المتكون في المدارس الفرنسية، فكل خطوة وكل اعجاب وكل ثقة تكون للطلاب المتخرج من الجامعات الأرثوذكسية.

إن الذي فكر فيه الشيخ محمد بن رحال، من قبول الاندماج في الثقافة الفرنسية، بعد وضع مقترح أولية الاندماج الثقافي العربي - الإسلامي كشرط أول، هو اطمئنانه لوجود

الرجال العلماء مثل الأرثوذكسيين، وبالتالي لا خوف على الأولياء من إرسال أولادهم إلى المدارس، فهم يعلمون أنه لا شيء يخافون عليه من إضافة الكثير من المعارف الفرنسية، إذ أن هدف بن رحال من مشروعه كان إنتاج قضاة في الشريعة، وأئمة وأطباء أو مهندسين. حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك في مشروعه الاصلاحى للتعليم الإسلامى، فقد اقترح إحداث جامعة إسلامية في مدينة الجزائر العاصمة على غرار جامعات الأزهر والزيتونة والقرويين²⁵.

استخدم الشيخ بن رحال كل الأفكار النهضوية الإسلامية النابعة من أفكار المصلحين والمفكرين الإسلاميين جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وكذلك الأفكار السياسية لأولئك الطلبة العائدين من الجامعات الإسلامية التي تمثلها مصر في عهد الملك محمد علي، التي اعتبرها أسلحة مقنعة للحصول على إمكانية نهضة ثقافية في الإطار الاستعماري آنذاك.

هذه المطالبة كان لها تأثير حاسم، ففي عام 1901 كتب بن رحال في مجلة مستقبل الإسلام " تحت مدفع المسيحية ستتم نهضة الإسلام " ويلخص نصه بقوله: " إذا كان إسلام شمال إفريقيا لم يتحضر من فرنسا ومن أجل فرنسا، فإنه سيتحضر رغما عنها وضدها ". وهو الذي وضع في عام 1921 المحاور المطلوبة بصورة أكثر جلاء في ميدان تعليم العربية الابتدائي، وألقى محاضرة عن تعليم اللغة العربية في جلسة عامة أمام الوفود المالية.

أمام هذا المستوى الثقافي المتراجع بشكل كبير، والذي لخص أربعين سنة من الاحتلال، يطرح بن رحال سؤالاً جوهرياً: كيف التصرف؟ ولكي يضع حلولاً لهذه الأزمة الثقافية، اقترح عدة حلول منها: عدم خلق عوائق للتعليم الابتدائي الإسلامي، وذلك بالدعم المادي من حيث الإعانة المادية السنوية لمعلم المدرسة، وتوفير بعض الحصير

للتلاميذ، بهذه الصورة سينتفش النادي الثقافي والأخلاق الذي سيكون له نتائج في المستقبل.

لقد كان للسياق السياسي والثقافي الجديد، الذي صاغ في ضوئه محمد بن رحال محتوى وشكل المناقشة التي انتهجها مع الحكم الاستعماري، الأثر الكبير في إعادة تشكيل الصراع الحقيقي بين المدارس الفرنسية والمدارس العربية الإسلامية، وهو الذي اعتبر الأمر مخالفا لحسن التصرف السياسي، إذ أهمل هذا الأخير بشكل واضح. وتكونت الحلقات الثقافية مثل: الرشيدية في الجزائر العاصمة، وصلاح باي في قسنطينة، تضيء في مدن الداخل، ودادية العلوم الحديثة في خنشلة، وحلقة الشباب الجزائري في تلمسان، وجمعية الأخوية في معسكر، وأحيانا في القرى مثل النهضة الصهرجية في جمعية الصهرج. هذه الحقبة تميزت على الأقل بالنسبة لحركة الجزائري الفتى بادرة الدخول إلى مدرسة فرنسا والغرب، وتميزت كذلك بالاهتمام الشديد الذي يؤديه مجموع الفئة المثقفة الجزائرية، الأنتلجانشيا، للتيارات الأيديولوجية الذي يحرك باقي العالم العربي الإسلامي.

- حركة الشباب الجزائري: التعليم، تصفية الظلامية (الجهل)، المحاضرات والدروس.
- الجماعات الإسلامية: التعليم، تصفية الظلامية، تكوين شبكة من المدارس القرآنية والمعاهد الإسلامية الحرة في مدينة الجزائر وتلمسان والقطاع القسنطيني بشكل خاص.

بعد أربعين سنة، التي سبقت تكوين الحركة الوطنية، يمكن أن نحدد مكانة الشيخ محمد بن رحال في المناقشة حول التعليم وفي تحديد موقعه من التيارات التي تحرك الدائرة الثقافية الجزائرية، فهو ضمن تلك الطائفة من المثقفين المزدوجي اللغة، ومن الأعيان المدنيين من أمثال، سي أحمد بن يوسف في بليدة، وسي علاوي بن يحي في مستغانم، وعمر بن بريهمات في مدينة الجزائر. هؤلاء الذين وجدوا في الاندماج الثقافي بالفرنسية ضرورة تاريخية. لكن الذي يُميز بن رحال عن أولئك المثقفين التقليديين، الذين يرون في توطين الجهاز المدرسي الفرنسي عدواً للاستقامة الثقافية في الجزائر. هو أنه كان يرى في

التعليم الفرنسي قوة تنبيه وتحرير وليس أداة تمثل حسب ما يذكره أجيريون عنه، ولا يمكن لهذا التعليم (الفرنسي) أن يكون إيجابيا إلا إذا كان مكملا للتعليم العربي والإسلامي. وهو الذي كان يرى في الاندماج الثقافي الفرنسي ضرورة وعاملا لنهضة الثقافة العربية الإسلامية، وإعادة تملك الرسالة القرآنية الخالية من الشوائب. بهذه الصورة ينتمي بن رحال إلى حركة التجديد الكبرى للإسلام بالرجوع إلى الأصول، إلى الحركة السلفية التي بدأت تترسخ في مدينة الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر، وهو قريب جداً من حركة المصلحين السلفيين الأوائل أمثال: كامل محمد بن مصطفى بن الخوجة، أستاذ بجامع مدينة الجزائر، ومحمد السيد الزواوي، أديب جزائري من الذين ينشدون فكر الشيخ محمد عبده²⁶.

غير أن هذا الاندماج في الحركة السلفية الإصلاحية، لا يتوافق مع الانقطاع الكامل عن الإسلام التقليدي "إسلام الجمعيات الخيرية والزوايا التي قدمها عام 1889، هذه الأخيرة تعتبر كملاذ هادي للحسنة والخير تحت حماية الإيمان واحترام الكل". وهو الذي كان ينتقد الخرافات، وكان بعيدا كل البعد عن مواقف الإمام محمد عبده في مهاجمته لقسنطينة عام 1903 خاصة مسألة "الأولياء الذين ييقون على الجهل".

في السياق ذاته، الذي يؤكد الانتماء للإسلام التقليدي، كانت صحيفة الحق الوهرانية، التي ظهرت سنة 1911 و1912 كاشفة للأهمية التي يمثلها المرجع الإسلامي بالنسبة للأنتلجانشيا الجزائرية، المتخرجة من الجهاز المدرسي الاستعماري، والتي كانت توحى بالاعتدال "إن الذين يريدون هدم البيت مهما كان مترديا، قبل أن يبني الجديد، هم أعداء الشعب المسلم الناشئ".

إن انطواء الشيخ محمد بن رحال إلى مفهوم النهضة من خلال التربية يكون أقوى من وصولها متأخرة في بداية القرن العشرين إلى الجزائر العديمة الثقافة، والتي كانت النخبة فيها تصنف إلى مفرنسين عصريين ومسلمين تقليديين. وإن الذي يريده هو إدارة الانتصار

على التأخر، الذي أدركته الجزائر بالنسبة إلى العالم الإسلامي، وإلى أطروحات الإمام محمد عبده عن الوضع الاستعماري للجزائر. وقد أدرك أن دور المستبد الناجح يستطيع أن يلعبه الحكم الاستعماري نفسه.

إن ما ميّز حقبة مطلع القرن العشرين على المستوى الثقافي، شدة الانقسام بين المثقف العصري والمثقف التقليدي، أي بقاء مسألة الانتقال من التأميم السياسي للأنتلجانشيا (تعبئة وتوحيد الشرائح والطبقات الاجتماعية في بوتقة واحدة) إلى التأميم الثقافي، الأمر الذي لا زلنا نعيشه في هذه المرحلة من قبل بعض الأنتلجانشيا الجزائرية (إما التلقيح أو التوفيق).

لقد عملت الحركة الوطنية بخصوص مسألة المراسي الثقافية التي كان المثقف الوطني هو الذي يبقى على مواقف الحركة الوطنية المستقلة من خلق ظروف سياسية واقتصادية، لكي لا تطرح مسألة الثقافة في عبارات المناقشة، الغرب والإسلام، وإنما بعبارات النهضة الوطنية وعبارات النضال من أجل الدفاع وتعميق الاستقلال الوطني، إنها مهام تقتضي إعادة تركيز القيم الثقافية²⁷.

خاتمة:

لم تزد هذه الورقة البحثية عن كونها حاولت الكشف بالقراءة والبحث عن مسألة ثقافية وتعليمية من تاريخ الجزائر الحديث فترة (1886 - 1925). ساعية من وراء ذلك إلى تبيان حالة الدائرة الثقافية والتعليمية على وجه الخصوص التي سادت تلك الفترة. وذكر أبرز الأسماء التي دافعت عن مكونات الهوية الوطنية والحفاظ على كل ما هو موروث ثقافي، وهو الأمر الذي أخذه الشيخ محمد بن رحال على عاتقه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

كما تعتبر هذه الدراسة من الدراسات القلائل التي عاجلت ظاهرة ثقافية تربوية من منظور تاريخي سوسيولوجي، متمثلة في تلك النصوص التي قدمها الباحث السوسيولوجي

عبد القادر جغلول، والتي بيّن من خلالها جملة الرؤى والتصورات التي صاغها الشيخ محمد بن رّحال في ميدان الثقافة والتعليم آنئذ، محلا إياها برؤية عميقة ومن منظور تاريخي واجتماعي. ووفقاً لمتغيرات وأحداث وسياقات خاصة بتلك الحقبة التاريخية، ساعياً من وراء ذلك إلى تفكيك بنية الأفكار التي شكلت المشهد الثقافي العام آنئذ. وفهم الداخل المحلي الذي تحياه الدائرة الثقافية والتعليمية فترة 1886 - 1925 بغية تطويرها والنهوض بها.

كما بينت هذه الدراسة كذلك، أهم الرؤى المختلفة التي كانت بين نخبة الأنتلجانشيا الجزائرية، خصوصا مع مطلع القرن العشرين، وبروز نختين مختلفتين اتسمت الأولى بالتقليدية (الرجعية) واتصفت الثانية بالمعاصرة (التجديدية)، الأمر الذي لا زالت بوادره ممثلة حتى يومنا هذا، من قبل ثلة من الأنتلجانشيا الجزائرية.

ثم إنّ الاهتمام بمآثر هؤلاء الرجال من أعلام الفكر التربوي على شاكلة محمد بن الأعرج التلمساني، ومحمد بن رحال الندرومي، وأحمد بن بريهمات، ومحمد بن العربي الشرشالي وغيرهم، هو من الضرورة بمكان، في سبيل إحياء تراث الأمة الجزائرية في مختلف الميادين الثقافية والتربوية والدينية والتاريخية، ونقله للأجيال اللاحقة بمختلف الآليات التعليمية والثقافية بغية تحصين أمنهم الفكري والثقافي.

يضاف إلى ذلك ضرورة توجيه الباحثين خصوصا أصحاب الدراسات العليا إلى تبني دراسة مآثر هؤلاء الأعلام في الفكر التربوي في الجزائري. أضف ضرورة تأليف قاموس شامل يُعرف بسيرة وأفكار هؤلاء الأعلام والاستفادة منهم في سبيل إصلاح المنظومة التربوية والتعليمية في الوقت الراهن.

الهوامش:

- ¹ إيفون تورين، الصراعات الثقافية في الجزائر في عهد الاستعمار (المدارس، الطب، الدين)، 1830 - 1880، تقديم مولاي بلحميسي، مجلة الأصال، تلمسان عاصمة الثقافة العربية الإسلامية، مجلد 02، العدد 05، 2011، ص 126 - 127.
- ² عبد المجيد مزيان، مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية، مجلة الأصال، تلمسان عاصمة الثقافة العربية الإسلامية، مجلد 03، العدد 08، 2011، ص 162 - 163.
- ³ عبد القادر جغلل، تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسولوجية، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1981، ص 63.
- ⁴ إيفون تورين، المجامع الثقافية في الجزائر المستعمرة من 1830 إلى 1880، تقديم الشيخ بو عمران، مجلة الأصال، تلمسان عاصمة الثقافة العربية الإسلامية، مجلد 02، العدد 05، 2011، ص 120.
- ⁵ المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي في الجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، مجلة الأصال، تلمسان عاصمة الثقافة العربية الإسلامية، مجلد 02، الأعداد 8، 2011، ص 316.
- ⁶ أحمد مريوش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر والحديث، كنوز الحكمة، الجزائر، ج1، ط1، 2013، ص 69.
- ⁷ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة، ج5، 2010، ص 342.
- ⁸ نفس المرجع، ص 340.
- ⁹ عبد القادر جغلل، مرجع سابق، ص 65.
- ¹⁰ عبد القادر جغلل، عناصر ثقافية، الجزائر (زاوية دقاوية)، 1980، ص 52 - 51، وأنظر أيضا: (زاوية القادرية)، جريدة المساء، مقالة مغفلة الكتاب، 1992، في: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، م5، ص 224.
- ¹¹ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص 340 - 342.
- ¹² علي تابليت، محمد بن رحال: مترجما، سياسيا، متصوفا، مجلة دفاتر الترجمة، معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2، مجلد 11، العدد 01، جويلية 2011، ص 62.
- ¹³ عبد القادر جغلل، مرجع سابق، ص 83.
- ¹⁴ سعد الله أبو القاسم، المترجمون الجزائريون وأفريقية، مجلة الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، العدد 13، 1996، ص 38.

¹⁵ سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص226، في: (مقالة بالفرنسة عنونها: مستقبل الإسلام 1891.

¹⁶ عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 62- 63.

¹⁷ نفس المرجع، ص 73- 75.

¹⁸ نفس المرجع، ص 76. وأنظر أيضا: ألفرد رامبو وارد عن فاني كولونا، في: المدرسون الجزائريون، ص 24.

¹⁹ سعيد عيادي، البراد يغم الإسلامي وإعادة البناء الحضاري، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1430 هـ 2009، ص 82.

²⁰ عبد القادر جغلول، مرجع سابق، ص 82 إلى 85.

²¹ نفس المرجع، ص 86 إلى 90.

²² نفس المرجع، ص 92- 94.

²³ نفس المرجع، ص 95.

²⁴ نفس المرجع، ص 99.

²⁵ نفس المرجع، صفحات 101- 109- 112.

²⁶ أنظر: بني سناسين، بيان عن جمعية الجغرافيا والآثار في وهران، الجزء 09، 1889، ص 40.

²⁷ عبد القادر جغلول، نفس المرجع السابق، صفحات 116- 119- 122.